الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢ —

الديانة المصرية

يجمع الباحثون على أن الديانة المصرية هى أولى الديانات البشرية التى ظهرت على وجه الأرض من غير استثناء. ويؤكد بعضهم تأكيداً قاطعاً بأنه لم تظهر ديانة فى الدنيا إلا ولها فى عقائد وادى النيل عنصر، وأن كل الديانات الانسانية ليست إلافتاتا متساقطا حول مائدة بلاد الفراعنة الذين سبقوا جميع سكان الكرة الأرضية إلى حل لواء المعرفة وفتح كثير من مغلقات العلم وحل ألغاز الكون. ومن أشهر العلماء الذين يعتنقون هذه الفكرة العالمان الانجليزيان: «برى» و«اليوت سميث». أما الأستاذ «دينيس سورا» فيؤمن بالفكرة الأولى وهى سابقية الديانة المصرية على جميع الديانات الانسانية، ولا يستبعد أن تكون جميع التطورات الدينية قد وجدت فى مصر من الوثنية المحضة إلى الروحية المغالية فى التجردية، بل إلى «اللاأدرية» المطلقة، ولكن الذى يعارض فيه هو أن بقية الشعوب القديمة قد تغذت من تساقط فتات المائدة المصرية، كما يقول بعض العلماء؛ وبراهينه فى هذه المعارضة هى:

أولا: أنه لم يثبت عن المصريين أنهم بعثوا بعثات إلى البلاد الأجنبية للتبشير بدياناتهم حتى انتشرت بين ربوع تلك الأمم.

ثانيا: ان الآثار المصرية التى يعتمد عليها العلماء فى حكمهم هذا لا تؤيدهم فى دعواهم إذا تأملوا فى الأمر تأملا دقيقا، لانها ليست إلا رموزا وطلاسم قصد بها كاتبوها غايات دينية محضة لا تسجيل حقائق علمية ولا إذاعة أسرار الدين وإبانة تطوراته المختلفة. وإذاً، فلا يمكننا أن نعتمد على تلك الآثار فى حكمنا، وفوق ذلك فإن أسرار العقيدة المصرية الأصلية لم تذع بين أفراد الشعب إلا فى عصور التدهور أى حوالى القرن السادس قبل المسيح؛ وبناء على هذا يكون العامة - وهم الذين يحتكون بالأجانب فى المعاملات - قد ظلوا جاهلين بحقيقة هذه الديانة حتى القرن السادس أى بعد ظهور كثير من الديانات الشرقية. وبهذا ينتفى تأثير الديانة المصرية على تلك الديانات..

ولا ريب أن البرهان الأول فى رأينا برهان ضعيف، لأن الديانة كما تنتشر بوساطة المبعوثين المختصين، تنتشر كذلك عن طريق الاحتكاكات التجارية والسياسية والاجتماعية. ولا جرم أن هذا كان موجوداً وثابتاً الثبات كله. أما ادعاء أصحاب هذا الرأى جهل الشعب بالعقائد المصرية حتى القرن السادس فهو غير صحيح، لأن الأدب المصرى - وهو مرآة الحياة الاجتماعية بما تحتويه من دين وأخلاق وغيرهما - قد أنبأنا فى مواضع تجل عن الحصر بكثير من أسرار العقيدة، أضف إلى هذا أن الرسوم والنقوش التى تكتظ بها المعابد تذيع أكثر هذه الأسرار الدينية، وليس سرا ما يعلمه الكهنة والأمراء، ورجال البلاط، وكبار الموظفين، والرسامون والعمال. على أنه إذا جازت سرية ما لدى هؤلاء جميعا - وهى بعيدة - فلا تجوز سرية ما لدى الأدباء والكتاب الذين أفعموا أسفارهم بوصف هذه المعلومات بأسلوب ضاف مسهب. وإذا فالأرجح - إن لم يكن مؤكدا - أن جميع الأمم القديمة من غير استثناء هى تلميذات مصر فى الدين كما هى تلميذاتها فى العلم والأدب والفن.

غير أنه بالرغم من صحة هذه النظريات القائلة بأخذ الأمم الشرقية دياناتها عن مصر فى نظرنا يجب علينا أن نخطو إلى إثباتها خطوات حذرة متبصرة تأتلف مع تلك المعلومات البسيطة التى اكتشفها المستعمرون، منتظرين ما تأتى به المكتشفات المقبلة عن هذه الأمة العريقة التى سمى العلماء بلادها بحق: «أرض الأسرار والعجائب».

قداسة الحيوان وأسبابها عند المصريين

رأى علماء أوروبا فى العصور الحديثة، الآثار المصرية مكتظة بالحيوانات المقدسة، ورأوا كذلك بعض الشعوب

البربرية المتوحشة فى جنوب إفريقيا وفى أطراف آسيا وأمريكا تقدس الحيوانات فى هـذا العصر الذى نعيش فيه تقديسا لايقل عن تقديس المصريين إياها فى العصور الغابرة ، فانخدعوا بهذه المشابهة السطحية وتوهموا أن تقديس المصريين القدماء للحيوانات هو من نوع تقديس المعاصرين المتوحشين لها ، وحسبوا أن التقديس المصرى هو : « Tolemisme » توتيميسم ، وهى كلمة تدل على قداسة الحيوان الناشئة عن اعتقاد القبيلة فى قرابتها أو صلتها الوثيقة بهذا الحيوان ، وهذا « التوتيميسم » موجود حقا عند المتوحشين المعاصرين ولاسيما فى أطراف أمريكا . وقد عنى العلماء باستبطان دواخل هؤلاء المتوحشين ، فسألوهم عن هذه الحيوانات المقدسة فأجاب البعض بأنها أجدادهم الاولون ، وأنهم حين يقدسون هذه الحيوانات لا يزيدون على أنهم يجلون عنصرهم الأول ويحترمون دماء أسلافهم التى تجرى فى عروق هذه الحيوانات . ورد البعض الآخر بأنها أقارب أجدادهم ، وأكد البعض الثالث أنها من خلفاء أولئك الأجواد ، وأعلن الرابع أن الحيوان المقدس عنده إنما هو إله قبيلة .

وقد شاهد العلماء أيضا فى بعض الجهات المتوحشة القبيلة تنقسم إلى أربعة بطون : البطن الأول يقدس الكلب ، وهو جده الأعلى ، والثانى يقدس الخنزير ، وهو عنصره الأول ، والثالث يقدس الوزغ ، وهو مبدؤه الأساسى . والرابع يقدس التمساح ، وهو رأس الأسرة الأولى من هذا البطن .

فلما رأى العلماء هذا التقديس للحيوان عند الشعوب المتوحشة ورأوه عند المصريين الغابرين ، جزموا بأن أولئك وهؤلاء متشابهون فى عقيدتهم وتقديسهم لايفرق بينهم إلا هذه العصور المترامية الأطراف

وقد أفاض بعض هؤلاء العلماء فى هذه الموازنة إفاضة أنزلت آراءهم منزلة خيال الشعراء وأحلام النائمين . وأبرز هؤلاء العلماء الحالمين هو الأستاذ « فرازير »(١) الانجليزى مؤلف كتاب « الغصن الذهبى »

وقد عارض كثير من العلماء الأدقاء فى هذه المشابهة معارضة شديدة وصرحوا بأنها تنقصها الأسانيد العلمية التى يعتمدعليها من ناحية ، وبأنها غير متناسقة الجزئيات من ناحية أخرى ، واستدلوا بأدلة على أن منشأ تقديس الحيوانات عند المصريين ليس هو « التوتيميسم » ، وإنما هو سبب آخر سنذكره هنا . وإليك شيئا من هذه الأدلة :

(١) إن المصريين القدماء كانوا يبيحون زواج الاخ من أخته مع أن جميع قبائل التوتيميسم تعد هذا العمل أكبر جرائمها التى تستوجب السخط والغضب ، بل إنها مجمعة من غير شذوذ واحد منها على أن زواج الرجل بامرأة من البطن الذى هو منه محرم ، وهذا خلاف واضح يجعل المشابهة بعيدة كل البعد

(٢) إنه قد عثر على كثير من القبائل المتوحشة تجهل « التوتيميسم » جهلا تاما ولاتنظر إلى الحيوان إلا بمثل الاغضاء والاهمال اللذين ينظر بهما إليه أرقى المتمدنين العصريين

(٣) إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن عنصرهم هو السماء فلا يمكن أن ينتسبوا إلى الانسان العادى فضلا عن الحيوان

(٤) إنهم صرحوا فى عدة مواضع من آثارهم بأسباب تقديسهم لتلك الحيوانات ، ولا يمت أى واحد من هذه الأسباب بصلة إلى تسلسلهم من الحيوان . وإذاً ، فلا يمكن أن نسمى تقديس المصريين للحيوان : « توتيميسم » إلا إذا خرجنا بهذه الكلمة عن معناها الأصلى ، وجعلناها مرادفة للتقديس فحسب بدل مرادفتها للتقديس الناشىء عن البنوة أو القرابة . على أن الذين يوافقون من المستمصرين على تسمية تقديس المصريين للحيوان « توتيميسم » يجمعون على قصر هذه « التوتيميسمية » على عصور ما قبل التاريخ كما يجمعون على وجوب فصل عقائد تلك العصور « التوتيميسمية » عن عقائد العصور التاريخية الراقية .

أما منشأ هـذه القداسة فهو يرجع — فى رأى العلماء المحققين — إلى أنه قد حدثت حروب بين القبائل المصرية فى عصور ما قبل التاريخ تجلت عن انتصار بعض هذه القبائل وانهزام البعض الآخر ، فرمز المنتصرون لبلادهم ببعض الحيوانات القوية ولقرى خصومهم المنهزمين ببعض الحيوانات الضعيفة ، فبقيت هذه الرموز دالة على معانيها ردحاً من الزمن

(١) يلاحظ أن أكثرية الآراء الخاطئة التى يذيعها الاستاذ سلامة موسى مستقاة من مؤلفات هذا العالم الخرافى .

ثم تعاقبت الأجيال فنسيت الأسباب الأولى وبقيت أسماء تلك الحيوانات عالقة بهاتيك القرى ورامزة لها فى شكل خفى غامض . ولما كانت النفوس البشرية مجبولة على تقديس ما تجهله فقد قدست مصر تلك الحيوانات دون تفريق بين قويها وضعيفها .

ولما ارتقت مصر نوعاً ، ونظمت بلادها وقسمتها إلى مقاطعات وأنشأ سكان كل مقاطعة على حدة راية خاصة بهم ظل بعض تلك الرموز القديمة باقياً ونقش كل منها على مقاطعته . كما اختفى البعض الآخر الذى لأمر ما لم يصلح للحياة ، ولكن ذلك البعض الذى بقى لم يظل جامدا على رايته حاله الأولى ، وانما تطور انسجاما مع المدنية الحديثة مثل البازى الذى كان فى عصور ما قبل التاريخ رمزاً لأحد الانتصارات الغابرة ثم أصبح فى العصور التاريخية رمزاً للاله « هوروس » إله القوة والخير والبركة ، وكالبقرة التى كانت كذلك فى العصور الأولى رمزاً لأحد تلك الانتصارات التى سجلت على القرية المنهزمة ضعفها ، فرمز اليها بحيوان صغير كالتمساح مثلا ثم أصبح رمز البقرة رمزاً للاله « هاتور » .

ومع طول الزمن اندمج بعض المقاطعات فى البعض الآخر وأصبح الكثير منها تحت إمرة إله واحد كما حدث فى الماضى أن أصبح المنهزم تحت إمرة المنتصر ، وهذا هو مأتى تقديس الحيوانات فى مصر القديمة ؟

«يتبع»

محمد غلاب

لطلاب البكالوريا :

البلاغة التطبيقية

للاستاذين محمد برانق وحسن علوان

يشتمل هذا الكتاب على ذكر القواعد موجزة مع تطبيقات وافية فى « البيان والبديع » وتمرينات عامة مرتبة على حسب هذا المنهج وفى اخره مفتاح عن الاسئلة مع ترجمات لمعظم الأعلام التى وردت فيه

الثمن ٥ ص

يطلب من ملتزمة نشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

٨٠٤٥

سر مجهول

فى تحريم لحم الخنزير

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

فى التشريع الإسلامى أسرار لا يعلمها إلا من طهر الله قلوبهم لحكمته ، وألهمها من العلم مالا يقاس به شىء عندها . وقد كان الناس يظنون أن الحكمة فى تحريم لحم الخنزير تعبدية إلى ان أخذوا فى هذا العصر يتلمسون حكم التشريع ، ويعنون بالبحث عن فوائده ومزاياه ؛ فحينما بحثوا فى حكمة تحريم لحم الخنزير ظنوا أنه استثناء من أصل أحل لحمه ، فأخذوا يبحثون فى تحريمه عن حكمة خاصة به . وقد ذكروا من ذلك ان الخنزير يصاب فى كثير من الأحيان بديدان تنتقل منه إلى من يأكل لحمه ، وتترى فى جسده ، فتكون منها الدودة الوحيدة الخطيرة ؛ وذكروا أيضاً أن فى الخنزير ديدانا أخرى تتربى فى لحمه يقال لها (تريشين) ، ومن عادتها أن تكون محاطة بكيس ينتهى أمره بأن يتحجر فتموت تلك الدودة فيه ، ولكن هذا لا يكون إلا بعد أن تلد ألوفاً لا تحصى من الديدان ، وكل دودة منها ينتهى أمرها إلى مثل ما انتهى اليه أمر الدودة الأولى ؛ فاذا أكل الانسان لحم الخنزير نزلت هذه الأكياس الحجرية الحاوية لهذه الديدان إلى معدته ، وذابت فيها بتأثير العصارة المعدية ، فتخرج منها ديدانها وتتكاثر فى جسمه وتسكن فى لحمه ، وهذا من أقبح الأمراض وأشنعها وناهيك بمرض يكون فيه لحم الانسان كله مساكن لتلك الديدان المؤذية .

وقد يكون هذا من ضمن الأسباب التى حرم الله بها لحم الخنزير ، وإن كان لا يوجد له نظير فيما حرم الله أكله علينا ؛ ولكن يبقى بعد هذا أن يقال : هل حرم الله علينا الخنزير لأنه خنزير ، أو لأنه من جنس السباع التى حرم علينا أكلها لحكمة عظيمة سنبينها ؟ ولقد سألنى بعض المخالفين منذ سنين